فلورنسا المدينة والإمارة

چاكوب بوركارت المؤرخ السويسرى خصص فصلا لمدينتى فلورنسا وڤنيسيا . قال عن الأولى : « أعلى شخصية سياسية ، والتنمية الكاملة على اختلاف وجوهها اجتمعت فى تاريخ فلورنسا المدينة ، والإمارة الجديرة بأن توصف كأول دولة بالمعنى الحديث فى العالم . فيها ترى شعبًا بأجمعه – فى حكم الأمراء – يعنى بأحوالها كأسرة ، بالروح الذى يجمع بين الإنصاف والرقة . وحب الجمال ، والطموح إلى الخلق والإبداع . يغير ما شاء له التغيير – الوضع السياسى والاجتماعى ، ولا يتوقف عن وصفه والحكم عليه ، وهكذا غدت فلورنسا بلد النظريات والمذاهب السياسية والتجارب ، والتغييرات . سبقت ، هى وڤينسيا كل الدول فى الإحصائيات ، والدراسات التاريخية بالمعنى الحديث . يعود هذا إلى نظرتها لروما القديمة ومعرفتها بمؤرخيها . ويعترف مؤرخ فلورنسا الكبير چوڤانى ڤيلانى بأنه عقب حضور يوبيل مدينة روما سنة ١٣٠٠ استقرت عنده فكرة عمله العظيم ، فشرع فى كتابة تاريخ فلورنسا . وختم كتابه بهذه الكلمات « روما تنحدر ، أما بلدى فهو فى صعود . فلورنسا تتأهب لتحقيق

أشياء جلى ، ولهذا عزمت على متابعة تاريخها حتى عصرها القائم .

وانبرى بوركارت لذكر مآثر فلورنسا فى شتى الميادين : أحزابها السياسية ، وصراعاتها . وجعل من دانتى اليجييرى سياسيًّا كبيرًا ، دانتى ابن فلورنسا وضَحِية أزماتها الداخلية . دانتى الذى أنضجته مدينته ، كما أنضجه نفيه نهائيًّا إلى « رافنّا حيث مزار مدفنه .

فلورنسا تقدمت فى الصناعة والتجارة ، ومنها خرج علم الاقتصاد السياسى . فإذا اتجهنا إلى العناصر الأساسية فى حضارتها التى رصدتها الإحصائيات فإننا نجمع بين الاقتصاديات بكل معانيها ، وبين الفن والأدب والبلاغة ودراسة فن العمارة الكلاسيكية عند اليونان والرومان ، وكان السياسى الشهير نقولا ماكيافيلّى ينظر إلى مدينته كأنها كائن حى .

فى غضون عام ١٤٣٠ كان أغلب العصر الكلاسيكى (الإغريق والرومان) قد تمّ العثور على مخطوطاتهم ، والبحوث مستمرة ، وفى مطالع القرن الخامس عشر أصبح تعلّم اللغة الإغريقية ميسرًا . ولو أن الأغلبية كانت فى صف اللاتينية . وأهم من هذا أن التنشئة والتربية والتعليم سلكت مسلكًا عاش فى غربى أوربا حتى أوائل هذا القرن ، وربما حتى حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ . وهو وضع اللغات الأساسية وهى اليونانية واللاتينية ، بعد اللغة القومية ، ثم دراسة الفلسفة والبلاغة والموسيقى ، مع اعتبار التربية البدنية شيئًا هامًّا . فإن كانت الموسيقى مربية للمشاعر « فالجمنا سطيق تقوم الجسد ، ووصف

هذه الدراسات بأنها التربية الهيومانية » : تعد المواطن لعضوية مجتمع حضارى منظم .

ويبدو أن فلورنسا كانت أول موضع يظهر فيه ما يوصف بالأسلوب الكلاسيكى فى العمارة . فإن العمائر الأثرية ، والكشف عنها ، كانت دراسات جادة لفهم بنائها بالتفصيل ، على أيدى معماريين ورسامين .

وكانت روما – الغنية بآثارها القديمة – كعبة القصّاد من أهل الفن والهندسة المعمارية ، نذكر من عظمائهم برونليسكو (١٣٧٧ – ١٤٤٦) ، ودوناتلّو النحات (حوالى ١٣٨٦ – ١٤٦٦) ، ثم برامانتى من بعد برونليسكو وقد ركز اهتمامه على طريقة بناء القباب (١٤٤٤ – ١٥١٤) ، وهو الذى بدأ بناء كنيسة سان پيترو التى أتمها ميكل أنجلو وهو يستعد لإقامة قبة « دومو » فلورنسا . وكان برونلّيسكو من قبله قد ركز اهتمامه بالقباب فعكف على فحص سطح البانتيون المقبب .

ويجىء دور أقْدرِ المعماريين أصالة ، وواحد من كبار العصر فى اتساع نشاطه ، ألا وهو باتستا ألبيرتى ، كان من أعمق الناس فى فهم نظرية العمارة الرومانية ، وقد ألف كتبه العشرة محتذيًا ابن روما القديمة المعمارى ڤتروڤيو الذى ألف كتابه الشهير للتعريف بماهية التوافق (الهارمونيا) والجمال فى العمارة وحلباتها . فقد عرف كتاب ڤتروڤيو فى دير سان جال بسويسرة ، وأدار فحصه ودراسته . إنما

الذى يميز ألبيرتى هو اعتماده على الملاحظة الدقيقة لمبانى الرومان ذاتها ، ومن أقواله : « لقد آلمنى ما شاهدته من ضياع التعاليم التى وضعها الكتاب القدماء ، ولم يبق من هؤلاء سوى ڤتروفيو ، « ذلك المؤلف الصعب فى فهمه » . بذل ألبيرتى جهدًا جبارًا لإبراز قواعد العمارة الرومانية .

ثم هناك المؤرخون يتابعون بحوثهم عن الماضى الحى فى آثاره ، وما أصاب هذه الآثار من علامات الخراب . ودفعهم هذا إلى تقسيم التاريخ بطريقة جديدة ، متابعين بتراك القائل بأن الحد الفاصل بين التاريخ القديم والحديث ، هو انتهاء الإمبراطورية الرومانية . وجاء غيرهم يقيمون الفاصل كقطيعة بين العصور القديمة والحديثة : من جراء اقتحام القوط لروما وتخريبها فى مطالع القرن الخامس ، وامتد عصر القطيعة ألف عام . ونتيجة هذه الفكرة ظهر مصطلح « العصر الوسيط » فاصلا بين انحدار الإمبراطورية الرومانية ، وقيام العصر الحديث بفضل أهل الفن فى تجديد وسائله وحقيقته . وبذلك يمكن القول بأن القرن الخامس عشر يتسم بالجدة ، ويكون « الرينسانس » هو ثمرة هذا التحديث الذى ساعد فى تفهم العصر القديم .